

# تدوين التاريخ: الآثار والنتائج

<"xml encoding="UTF-8?>



## آثار ونتائج

وقد استمر المنع من كتابة الحديث وروايته عشرات السنين، وأصبح التحاشي عنه هو الصفة المميزة لعلماء الأمة وطليعتها المثقفة.

محتويات [إخفاء]

## آثار ونتائج

### نصوص وشواهد

الهاشميون في زمن السجاد

لا مبالغة ولا تهويل

فضائح لا تطاق

ومما يضحك الثكلى

التركة الموروثة

نظيرية التطور عند أهل الحديث

الوضع والوضاعون

الحاجة أُم الاختراع

الفقه والفقهاء

يعترفون.. ثم يتهمون

التجني على العراقيين

السبب هو السياسة والانحراف عن علي عليه السلام

فشل المحاولات

خلاصات لا بد من قراءتها

لامعايير ولا ضوابط

إنفلات الزمام

أهل الكتاب يمارسون دورهم

إبعاد أهل البيت عليهم السلام عن الساحة

الاتجاء المبكر إلى الرأي والقياس

أصدق الحديث

الد الواقع والأهداف

1 - للخليفة مقام الرسول

2 - إحراجات لا بد من الخروج منها

3 - التأثر بأهل الكتاب

بغضهم لعلي عليه السلام سبب آخر

بل لقد صارت كتابة الحديث عيباً أيضاً، حتى في أوائل عهدبني مروان 1.

ومضت السنون والأحقب، وماتت الصحابة الأخيار، بل أوشك التابعون على الانقراض أيضاً.

ونشأت أجيال وأجيال لم تسمع أحداً يذكر شيئاً عن نبيها، ولا عن مواقفه، وتعاليمه، وسيرته ومفاهيمه.

وتربت هذه الأجيال على النهج الفكري الذي أراده لها الحكم والمسلطون، والموتوروں والحاقدون، وتلامذة أهل

الكتاب، المعجبون بهم. وذهب الدين وتلاشى، حتى لم يبق من الإسلام إلا اسمه، ومن الدين إلا رسمه، حسبما

روي عن أمير المؤمنين علي عليه الصلاة والسلام 2، الذي لم يعش إلا إلى سنة أربعين من الهجرة.

ثم ازداد البلاء بعد ذلك، وبرح الخفاء إلى حد الفضيحة، فاضطر عمر بن عبد العزيز إلى القيام بعمل رمزي ضعيف

وسيط، لم يكن له أي أثر يذكر على الصعيد العملي، على مستوى الأجيال والأمة. ثم بدأت الحركة الحقيقة باتجاه التدوين في أواسط القرن الثاني للهجرة، حسبما تقدم توضيحة. وخلاصة الأمر: أن الحال قد ترددت خلال أقل من ثلاثين سنة من وفاة النبي « صلى الله عليه وآله » إلى ذلك الحد الذي أشار إليه سيد الوصيّين « عليه السلام ».

وطمست معظم معالم الدين، ومحقت أحكام الشريعة، كما أكدته نصوص كثيرة.<sup>3</sup>

وكان ذلك في حين أن الصحابة وعلماءهم كانوا لا يزالون على قيد الحياة، وكان الناس ينفاذون إلى الدين وأحكامه، ويطيعون رموزه وأعلامه.

فكيف ترى أصبحت الحال بعد أن فتحت الفتوح، ومصرت الأمسار، ودخلت أقطار كثيرة أو أظهرت الدخول في الإسلام، تحت وطأة الفتوحات، التي قامت بها السلطة الحاكمة آنذاك؟

وكان أن تضخم الحالة السكانية، واتسعت رقعة العالم الإسلامي، في فترة قصيرة جداً، وبسرعة هائلة.

لقد كان من الطبيعي: أن يأخذ هؤلاء الوافدون جديداً على الإسلام ثقافتهم الدينية من الناس الذين التقوا بهم، وعاشوا معهم، أو تحت سلطتهم وهيمنتهم.

فإذا كان هؤلاء ضائعين، جاهلين بأحكام الشريعة، وبحقائق الدين، فما ظنك بالتبعين لهم والآخذين عنهم؟  
فإنهم سوف لا يأخذون عنهم إلا ثمرات ذلك الجهل، وآثار ذلك الضياع.

## نصول و شواهد

ومن الشواهد على هول ما حدث: أننا نقرأ عن عدد من الصحابة وغيرهم: أنهم قد تنبهوا للأساة، وعبروا عنها بأنحاء مختلفة.

ونذكر من ذلك هنا النصوص التالية:

1- قد تقدم قول أمير المؤمنين «عليه السلام»: لم يبق من الإسلام إلا اسمه، ومن الدين إلا رسمه.

2 - روى الإمام مالك عن عمه أبي سهيل بن مالك، عن أبيه، أنه قال: « ما أعرف شيئاً مما أدركت الناس عليه إلا النداء بالصلوة » .<sup>4</sup>

قال الزرقاني، والباجي: «يريد الصحابة، وأن الأذان باق على ما كان عليه، ولم يدخله تغيير، ولا تبديل، بخلاف الصلاة، فقد أخرت عن أوقاتها، وسائل الأفعال دخلها التغيير الخ.. ». 5.

3 - أخرج الشافعي من طريق وهب بن كيسان، قال: رأيت ابن الزبير يبدأ بالصلوة قبل الخطبة، ثم قال: «كل سنن رسول الله «صلي الله عليه وآله» قد غيرت، حتى الصلاة» 6.

4 - يقول الزهري: دخلنا على أنس بن مالك بدمشق، وهو وحده يبكي، قلت: ما يبكيك؟ قال: «لا أعرف شيئاً مما أدركت إلا هذه الصلاة، وقد ضعفت ». 7

5 - وقال الحسن البصري: « لو خرج عليكم أصحاب رسول الله « صلى الله عليه وآلـه » ما عرفوا منكم إلا قبلتكم » .8

ونقول: حتى القبلة قد غيرت، وجعلوها إلى بيت المقدس، حيث الصخرة قبلة اليهود، كما تقدم في الفصل الأول من هذا الكتاب.

6 - وقال أبو الدرداء: «والله لا أعرف فيهم من أمر محمد « صلى الله عليه وآلـه » شيئاً إلا أنـهم يصلـون جـمـيـعاً ». 9

7 - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص؛ أنه قال: « لو أن رجلين من أوائل هذه الأمة خلوا بمصفيهما في بعض هذه الأودية، لأننا الناس اليوم ولا يعرفان شيئاً مما كانا عليه » 10.

وعن الإمام الصادق « عليه السلام » - وقد ذكرت هذه الأهواء عنده - فقال: « لا والله، ما هم على شيء مما جاء به رسول الله » صلى الله عليه وآله « إلا استقبال الكعبة فقط » 11.

8 - وحينما صلى عمران بن حصين خلف علي « عليه السلام » أخذ بيده مطرف بن عبد الله، وقال: لقد صلّى صلاة محمد، ولقد ذكرني صلاة محمد.

وكذلك قال أبو موسى حينما صلّى خلف علي « عليه السلام » 12.

الهاشميون في زمان السجاد

9 - وأخيراً، فقد ذكروا: أن الناس والهاشميون في زمان السجاد « عليه السلام » إلى أن مضت سبع سنين من إماماً الباقي « عليه السلام » كانوا لا يعرفون كيف يصلون، ولا كيف يحجون 13.

فإذا كانت الصلاة التي هي عمود الدين، والركن الأعظم في الإسلام، وبؤديها كل مسلم خمس مرات يومياً، كان لا يعرف حدودها وأحكامها حتى بعض من هم أقرب الناس إلى مهبط الوحي والتنزيل، الذين يفترض فيهم أن يكونوا أعرف من كل أحد بالشريعة وأحكام الدين!، فكيف تكون حالة غيرهم من أبناء الأمة، الذين هم أبعد عن مصدر العلم والمعرفة، وما هو مدى اطلاعهم على أحكام الشريعة يا ترى؟!.

وإذا كانت أوضح الواضحة قد أصبحت مجهولة إلى هذا الحد، فما هو مدى معرفة الناس، وبالخصوص البعيدين منهم عن مصدر العلم والمعرفة، بالأحكام الأخرى، التي يقل الابتلاء بها، والتعرض لها، والسؤال عنها؟!  
لا مبالغة ولا تهويل

وقد يظن القارئ: أننا نبالغ في تصويرنا لحقيقة ما تم خضعت عنه تلك السياسة الخبيثة تجاه حديث الرسول « صلى الله عليه وآله »، وتجاه القرآن والإسلام.

وقد يظن مثل ذلك بالنسبة للأقوال الآنفة الذكر التي تقرر: أنه لم يبق من الإسلام إلا اسمه، ومن الدين إلا رسمه. أو لم يبق إلا الأذان بالصلاه، أو أن صلاة النبي « صلى الله عليه وآله » أصبحت منسية حتى من قبل صاحبته « صلى الله عليه وآله »، حتى ذكرهم بها على أمير المؤمنين « عليه السلام ».. إلى آخر ما قدمناه.

ولكننا نأسف حين نقول للقارئ: إن هذه هي الحقيقة، كل الحقيقة، وليس فيها أي مبالغة، أو تضخيم.

ومن أجل التأكيد على ما سبق نورد للقارئ بعض الشواهد والواقع لتكون دليلاً ملماً على ما نقول، مع التزامنا القوي في أن لا نذكر شيئاً من تلك الشواهد الكثيرة والمتضادرة على جهل الخلفاء - باستثناء علي « عليه السلام » - بأحكام شرعية هي من أبده البديهيات، وأوضح الواضحة؛ لأننا نخاف أن توجه إلينا أصابع الاتهام بالتعصب على هذا أو ذاك، وبإرادة تسجيل إدانة لهم من موقع التحامل المذهبى عليهم.

مع أننا نطمئن القارئ الكريم بأن العلامة الأميني رحمه الله، قد أغنانا في كتابه القيم « الغدير » عن ذلك، لأنه حشد فيه من الواقع والشواهد على ذلك الشيء الكثير، والكثير جداً، عن مصادر بالغة الكثرة والوثاقة لدى من يتولونهم، ويدافعون عنهم بكل حيلة ووسيلة.

فضائح لا تطاق

والشواهد التي نريد أن نوردها هنا، وتصل إلى حد الفضيحة، هي التالية:

1 - يقول ابن عباس لأهل البصرة، وهو على المنبر: أخرجوا صدقة صومكم. فلم يفهم الناس مراده؛ فطلب أن يقوم من كان من أهل المدينة حاضراً بتوضيح ذلك للناس؛ « فإنهم لا يعلمون من زكاة الفطرة الواجبة شيئاً »

كان هذا هو حال البصرة، التي مُصرّت في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، فإن أهلها لا يفهمون حتى لغة الشريعة، ولم يعرفوا عن زكاة الفطرة شيئاً، رغم أن من المفترض أن يكون ذلك من البدويّات، فما ظنك بعد هذا بأولئك الذين تفتح بلادهم، وبلغون إسلامهم، وهم عشرات الألوف، وليس لديهم من يعلمهم، ولا من يدخلهم ويرشدهم؟

وقد كانت لا تزال تضاف إلى الممالك الإسلامية مناطق واسعة، وبلاد شاسعة، مملوءة بالسكان، دون أن يتصدى لتعليمهم وتنقيفهم أحد من الناس.

2 - وقد كان جيشاً بأكمله من هؤلاء الفاتحين للبلاد، والمفترض أنهم هم حملة الإسلام إلى سائر الأمم التي تخضع لهم، وتقبل ببسط سلطتهم - إن هذا الجيش - لم يكن فيه أحد يعرف: أن الوضوء على من أحدث، حتى بعث قائدتهم، أبو موسى الأشعري من ينادي فيهم بذلك 15.

مع أن أمر الوضوء من أوضح الواضحات، ويمارسه كل أحد كل يوم عدة مرات.

إذا كان هؤلاء يجهلون ذلك، فما ظنك بالناس الذين يفترض فيهم أن يأخذوا أحكام دينهم وعباداتهم من هؤلاء الجهلة بالذات، وهم المعلمون والأساتذة، والمربيون لهم؟!!.

3 - لقد أشار الخليفة الثاني إلى أن الناس كانوا يعرفون جهل كبار الصحابة بأحكام الربا، فهو يقول: «إنكم تزعمون: أننا لا نعلم أحكام الربا. ولأنّ أكون أعلمها أحب إلى من أن يكون لي مثل مصر، وكوئها» 16.

4 - كما أن ابن مسعود لم يكن يدري: أن صرف الفضة بالفضة لا يصلح إلا مثلاً بمثل 17.

5 - وأنكر معاوية أيضاً: أن يكون ذلك من الربا 18.

ونقول:

إنه إذا كان الصحابة، حتى الخليفة الثاني ومعاوية، وحتى ابن مسعود المشهور بعلمه وفضله، لا يدركون ذلك، فما حال غيرهم من سائر الناس، فضلاً عن أولئك الذين لم يروا النبي «صلى الله عليه وآله» ولا عاشوا معه، بل سمعوا باسمه، لا أكثر ولا أقل؟!.

6 - لقد شكا أهل الكوفة إلى عمر، سعد بن أبي وقاص: أنه لا يحسن يصلبي 19.

7 - إن ابن عمر لا يحسن أن يطلق امرأته، حيث طلقها ثلاثة في طهر كان واقعها فيه، فاستحمرقوه لأجل ذلك 20.

8 - إن ابن مسعود قد أفتى رجلاً في الكوفة بجواز أن يتزوج أم زوجته التي طلقها قبل الدخول، ففعل ذلك، وبعد أن ولدت له أم زوجته ثلاثة أولاد، وعاد ابن مسعود إلى المدينة، وسأل عن هذه المسألة، فأخبروه بعدم جواز ذلك، فعاد إلى الكوفة، وأمر ذلك الرجل بفارق تلك المرأة، بعد كل ما حصل 21.

كما أن مسروقاً ومعاوية كانوا لا يعرفان حكم هذه المسألة أيضاً 22.

9 - إنهم إنما كانوا يعرفون قراءة رسول الله «صلى الله عليه وآله» في صلاته؛ باضطراب لحيته 23.

10 - لقد أفتى عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو 24: أن ماء البحر لا يجزي من وضوء ولا جنابة.

وأقرب من هذا روى عن سعيد بن المسيب 25 وروي مثل ذلك عن أبي هريرة أيضاً 26.

ومما يضحك الثكلى

هذا، وقد ذكر لنا الزبير بن بكار وغيره نموذجاً مخجلاً، يضحك حتى الثكلى من خطب عدد من سادة القبائل 27، ممن كان الخلفاء يولونهم أمور الناس في عنفوان الدولة الأموية. وهي إن دلت على شيء فإنما تدل على مدى الانحطاط الفكري الذي كان يهيمن على طبقة الرؤساء وأصحاب النفوذ آنئذ، فكيف يمكننا أن نتصور حالة سائر

الناس ممن كانوا لا يملكون إمكانيات حتى الحصول على لقمة العيش، والاحتفاظ برمق الحياة؟ قال الزبير بن بكار: « شكا عبد الله بن عامر إلى زياد بن أبيه - وهو كاتبه على العراق - الحصر على المنبر، فقال: أما إنك لو سمعت كلام غيرك في ذلك الموقف استكثرت ما يكون منك. قال: فكيف أسمع ذاك؟! »

قال: رح يوم الجمعة وكن من المقصورة بالقرب حتى أسمعك خطب الناس. فلما كان يوم الجمعة قال زياد: إن الأمير سهر البارحة فليس يمكنه الخروج إلى الصلاة. والتفت إلى رجل من سادة بني تميم، فقال له: قم فاخطب، وصل بالناس. فلما أوفى على ذروة المنبر قال: الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أشهر. قالوا: قبحك الله، جل ثناؤه يقول: في ستة أيام. وتقول أنت: في ستة أشهر.

فنزل والتفت إلى شريفٍ لربيعة، فقال له: قم فاخطب. فلما ارتفى المنبر ضرب بطرفه، فوقع على جار له كان يخاصمه في حد بينهما. فقال: الحمد لله. وارتज عليه. فقال لجاره: أما بعد فإن نزلت إليك يا أصلع لأفعلن بك، ولأفعلن.

فأنزلوه. فالتفت إلى رئيس من رؤساء الأذد، فقال له: انهض فأقم للناس صلاتهم، فلما تسنم المنبر قال: الحمد لله، ولم يدر ما يقول بعد ذلك، فقال: أيها الناس، قد والله هممت أن لا أحضر اليوم، فقالت لي امرأتي: أشدتكم بالله إن تركت فضل الصلاة في المسجد يوم الجمعة، فأطعتها، فوقفت هذا الموقف الذي ترون. فاشهدوا جميعاً أنها طالق.

فأنزلوه إنزالاً عنيفاً. وأرسل زياد إلى عبد الله بن عامر، أنه ليس أحد يقيم صلاتهم، ولا بد أن تحمل على نفسك. فخرج فخطب فتبين فضله في الناس على سائر الناس 28.

### التركة المورثة

أما بالنسبة إلى حجم التركة التي ورثها الناس عن سلفهم الصالح (على حد تعبيرهم) فقد ادعوا: أنه قد وصل إليهم من حديث رسول الله « صلى الله عليه وآله » - من غير طريق أهل البيت « عليهم السلام » - نزق قليل، لا يتناسب مع الحاجات التي تواجه الناس، ولا تتوافق مع هذا التراث الضخم جداً، الذي سطره علماؤهم عبر القرون المتمادية، فهم يقولون:

إن حديث النبي « صلى الله عليه وآله » أربعة آلاف حديث 29.

عن أحمد بن حنبل: « الأصول التي يدور عليها العلم عن النبي « صلى الله عليه وآله » ينبغي أن تكون ألفاً ومائتين » 30.

لكن نصاً آخر يقول: إنه لم يصل إلى الأمة سوى خمس مئة حديث في أصول الأحكام، وممثلها في أصول السنة

.31

ثم إنهم يقولون: إن هذا الوائل لم يصح منه عندهم إلا أقل القليل، حيث قد بلغت رواية أبي حنيفة سبعة عشر حديثاً فقط.

أما مالك، فإنما صح عنده ما في كتاب الموطأ، « وغايتها ثلاثة مئة حديث، أو نحوها » 32. فمن أين إذن جاءت هذه الآلاف المؤلفة من الأحاديث التي وصفوها بالثبوت والصحة، فملألت صححي البخاري ومسلم، ومستدرك الحاكم، وبباقي الصحاح السنت، وصحيح ابن حبان، وصحيح أبي عوانة. وغير ذلك كثير؟ هذا فضلاً عن غيرها من مئات الآلاف بل الملايين من الأحاديث التي يزعم حفاظ الحديث أنها عندهم. بل إن أحمد بن حنبل الذي يقول ما قدمناه هو نفسه قد ألف المسند الذي يضم أربعين ألف حديث، منها عشرة آلاف مكررة 33.

ويعزون: أنه ليس فيه حديث موضوع عدا ثلاثة أو أربعة أحاديث تكلموا فيها. بل لا يتأتى الحكم بكون واحد منها موضوعاً إلا الفرد النادر، مع الاهتمام القوي في دفع ذلك 34.

نعم، من أين جاءت هذه الأحاديث والروايات، إن ذلك لمريب حقاً، وإنه أيضاً لغريب وعجب!!

نظريّة التطور عند أهل الحديث

قد ظهر مما تقدم: أن الأحاديث التي كان قد بلغ تداولها إلى درجة الصفر أو كاد، قد بدأت بعد السماح للناس بالرواية، بعد عشرات السنين تظهر عليها أعراض التضخم المطرد بصورة غير طبيعية، وبدون أية ضابطة أو رابطة، إذ إن مراجعة جامعة لكتب تراجم الحفاظ وأهل الحديث، ومن يسمونهم بالفقهاء مثل تذكرة الحفاظ للذهبي 35 وغيره تعطينا أمرين:

أحدهما: أنها تعظم وتفخر وتخلع مختلف الألفاظ الدالة على الحفظ والعلم، والتبحر على أشخاص كثيرين، بل تصف بعضهم بأنه وحيد في مصره أو في عصره.

ثم يظهر: أنه إنما كان يحفظ ثلاث مئة حديث، أو لم يثبت لديه سوى سبعة عشر حديثاً، أو لا يعرف أنه يحرم الزواج بأم الزوجة، أو ما إلى ذلك مما ألمحنا إليه.

الثاني: إن ملاحظة طبقات الحفاظ تعطينا تدرجاً ملفتاً للنظر في حجم الأحاديث، فنجد أن طبقة كبيرة في الصدر الأول يوصف الحافظ منها بأن عنده ثلاثون أو ستون حديثاً، أو مئة أو عشرة أحاديث، أو مئتا حديث، ونحو ذلك. ثم إذا تقدم الزمان قليلاً، يتراوح العدد بين الألف والألفين والثلاثة والخمسة، ونحو ذلك. ثم في فترة لاحقة يتراوح العدد إلى بعض عشرات: عشرين ألفاً، ثلاثين.. وهكذا.

ثم يقفز العدد إلى الست والسبعين مئة، وإلى المليون حديث، وأكثر من ذلك حتى ليفوز بعضهم مثل شعبة بلقب أمير المؤمنين في الحديث .36

ولا ننسى هنا: أن نستشهد لهذا الذي ذكرناه بالمقارنة التالية:

في حين نجد: أن القاضي عبد الجبار يصرح: بأن أحاديث التجسيم والتشبيه من أخبار الآحاد .37 وأن أحمد بن حنبل قد قال: إن بعض أهل الحديث أخبره: أن يحيى بن صالح (المتوفى سنة 222 هـ) 38 قال: « لو ترك أصحاب الحديث عشرة أحاديث، يعني هذه التي في الرؤية ». ثم قال أحمد: « كأنه نزع إلى رأي جهنم » .39

فيحيى بن صالح الذي يروي له البخاري، وأصحاب الصحاح الست سوى النسائي 40 يريد أن يقول: إن الاعتقاد برؤية الله قائم على عشرة أحاديث فقط.

بل صرخ بعضهم: بأن أخبار الرؤية لا تزيد على ثمانية أحاديث 41.

ولكننا بعد حوالي نصف قرن من الزمن نجد ابن خزيمة الذي يصفونه بأنه «إمام الأئمة» يُؤلف كتاباً بعنوان «

التوحيد وإثبات صفات الرب » يبلغ عدد صفحاته حوالي أربع مئة صفحة، قد شحنه بأحاديث التجسيم، وأحاديث الرؤية من أوله إلى آخره، وفيه الكثير مما يدل على أن الله تعالى يدأ، ورجلًا، وعيناً، وإصبعاً، وساقاً.. الخ.. تعالى الله عما يقوله الجاهلون والمبطلون علواً كبيراً.

فمن أين جاءت هذه الأحاديث؟  
وكيف ومتى لفقت واحتزرت؟!

لا ندري، غير أننا وجدنا الإمام الشافعي ينقل عن القاضي أبي يوسف، الذي عاش في أواخر القرن الثاني قوله: « والرواية تزداد كثرة، ويخرج منها ما لا يعرف، ولا يعرفه أهل الفقه، ولا يوافق الكتاب ولا السنة » 42. وذلك يفسر لنا العديد من الظواهر الأخرى الملفتة للنظر، مما سنشير إلى بعض منه فيما يلي من مطالب.

الوضع والوضعون

وبعدما تقدم، فإننا سوف لن نفاجأ إذا سمعناهم يحكمون على 12 أو 14 أو 35 ألف حديث، بل على مئات الألوف من الأحاديث بالكذب والوضع والاختلاق؛ وكثير من هذا المختلق والموضوع قد جاء لأهداف مختلفة، ومنها: لإرضاء الملوك وتأييد سلطانهم، وتحقيق أهدافهم وماربهم 43.

وقد ذكر العلامة الأميني في كتابه الغدير ج 5 ص 288 - 290 قائمة بالموضوعات بلغت 408684 حديثاً فراجع. وحتى تلك الأحاديث التي سكتوا عنها أو حكموا بصحتها، وهي تعد ب什رات الألوف والملابين 44، وقد زخرت بها كتب صحاحهم ومجاميعهم الحديبية، فإنها تصبح موضع شك وريب، بل إننا لنطمئن لعدم صحة الكثير منها، من الأساس.

الحاجة أم الاتخراج

وبعد، فإذا كان كبار الصحابة، وابن مسعود لا يعرفون أحكام الربا، وابن عمر لا يعرف كيف يطلق امرأته، وجيش بأكمله لا يعرف أن الوضع على من أحدث إلى آخر ما تقدم. فإن من الطبيعي: أن يرى الناس في من يدعي أنه يحفظ ثلاثين أو أربعين حديثاً، أو مئة أو مائة حديث، أو عرف بعض الأحكام عن رسول الله « صلى الله عليه وآلـه »: أنه أعلم العلماء، وأفقه الفقهاء في عصره، أو في مصره، أو بلده.

وأن يصبح هو الملاذ والمرجع والموئل لهم فيما ينوبهم من أمور دينهم. ويتعلّمـون عليه، ويأخذون عنه أحكامهم، وشريعة نبيهم، كما يظهر جلياً من مراجعة كتب التراجم والرجال، التي تمثل التيار العام لبعض الفئات، التي كانت تنسجم مع سياسات الحكام، وترتبط بها بنحو أو آخر.

ومن جهة أخرى؛ فإن هذا العالم الجليل!! إذا وجد نفسه في موقع كهذا، وواجه الواقع، واحتاج إلى المزيد مما ليس عنده منه أثارة من علم، فلسوف يبحث عما يلبي له حاجته، ويوصله إلى بغيته، وأين؟ وأنى له أن يجد ذلك؟ إلا عند أناس، أخذ على نفسه (أو أخذ الحكم علىه وعلى الناس): أن لا يتصلوا بهم، ولا يأخذوا شيئاً عنهم، وهم أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة عليهم الصلاة والسلام.

فلا غرو بعد هذا إذا رأينا هذا الرجل الجليل يبادر إلى ما هو أسهل وأيسر، فيضيف من عند نفسه، وعلى حسابه الخاص ما شاءت له قريحته، وسمحت له به همته، حيث لا رقيب عليه ولا حسيب، ولا مانع من ضمير، ولا رادع من وجدان.

الفقه والفقهاء

أما بالنسبة إلى فقه الفقهاء، ومذاهب العلماء، فقد أصبح من المفهوم: أن وراء الأكمة ما وراءها، حين نرى أن فقه أبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وغيرهم يتسع ويتضخم، ويزيد ويتورم، حتى تضيق عنه المجلدات الكثيرة وآلاف الصفحات، مع ما نراه من استنادهم إلى المئات والألوف من الروايات التي كانت تلك حالها، وذاك مآلها!!

فاقرأ واعجب، فما عشت أراك الدهر عجبًا!!

أما ما يستندون إليه، ويعتمدون عليه في غير الفقه، فذلك حدث عنه ولا حرج؛ وهو يصل إلى الألوف الكثيرة، كما يظهر من تتبع مختلف الموضع والموضع.

يعترفون.. ثم يتهمون

ومن الطريق أن نذكر هنا:

أنهم في حين يعترفون بأنهم قد وضعوا أحاديث في فضائل أبي بكر، وعمر، وعثمان، رداً على من ينتقص منهم .45

ويعترفون أيضًا: بأنه عندما كثر سب الصحابة (وهو أمر لم يحصل، وما حصل هو مجرد التعريف ببعض ما ارتكبه أشخاص منهم، تحبهم الهيئة الحاكمة، أو ممن كانوا أحد أركانها، رداً على الغلو الحاصل فيهم، حتى لتعتبر أقوالهم سنة، وما إلى ذلك) فقد وضعت أحاديث في فضل الصحابة جميعاً، أو في فضل جمع منهم .46

إنهم مع أنهم يعترفون بهذا، لكنهم يتهمون بعض الشيعة بوضع أحاديث في فضل علي، والطعن في معاوية .47

مع أن علياً في غنى عن ذلك، ولا يمكن لأحد أن يضع أكثر مما قاله رسول الله «صلى الله عليه وآله» في حقه، مما ثبت بالآثار الصحيحة والمتوترة، والتي تفوق حد الإحصاء.

كما أنه يكفي معاوية التعريف بما ثبتت روايته عن رسول الله «صلى الله عليه وآله» في حقه مما لا يجهله أحد، حتى إن النسائي قد نال شرف الشهادة حينما أظهر حديثاً واحداً منها .48

فكيف لو أراد إظهار كل ما يعرفه، مما رواه عن رسول الله «صلى الله عليه وآله» في حقه؟!

التجني على العراقيين

وقد كان العراق موطنًا لعلي «عليه السلام» مدة خلافته، وقد ناصر العراقيون علياً، ورأوا ورووا بعض فضائله «عليه السلام».

وقاتلوا الناكثين والمارقين والقاسطين معه، فعادتهم الناس، واتهموهم بالكذب والوضع لأجل ذلك، وفرضوا عليهم حصاراً ثقافياً وإعلامياً.

ولعل أول من بادر إلى اتهامهم بذلك هو أم المؤمنين عائشة 49 التي لقيت على أيديهم في حرب الجمل شهادة هزيمة.

وأتهمهم بذلك أيضًا عبد الله بن عمرو بن العاص الذي لقي منهم الأمراء في حرب صفين .50

وكذلك الزهري 51 الذي كان له وجاهة ومكانة خاصة في البلاط الأموي .52

أما مالك، الذي لم يرو عن أحد من الكوفيين، سوى عبد الله بن إدريس، الذي كان على مذهبهم، فقد رأى: أن أحاديث أهل العراق، تنزل منزلة أحاديث أهل الكتاب، أي فلا تصدق ولا تكذب .53

وكان يقول: لم يرو أولونا عن أوليائهم، كذلك لا يروي آخرون عن آخرهم .54

السبب هو السياسة والانحراف عن علي عليه السلام

وقد كانت هذه السياسة سياسة أموية وشامية، ضد علي « عليه السلام »، منطلقها التعصب والتجمي، وليس تحرى الحق، والتزام جانبه.

وقد قالوا عن الجوزجاني:

إنه في كتابه في الرجال « يتشدد في جرح الكوفيين من أصحاب علي، من أجل المذهب »، لذلك قال ابن حجر: « لا عبرة بحثه على الكوفيين » 55.

وقال الأوزاعي:

« كانت الخلفاء بالشام، فإذا كانت الحادثة سألوا عنها علماء أهل الشام، وأهل المدينة، وكانت أحاديث العراق لا تجاوز جدر بيوتهم، فممتى كان علماء أهل الشام يحملون عن خوارج أهل العراق؟! » 56.

ويقول ابن المبارك: « ما دخلت الشام إلا لاستغني عن حديث أهل الكوفة » 57.

بل إن ذلك قد انعكس حتى على علوم العربية، مثل علم النحو وغيره؛ حيث نجد اهتماماً ظاهراً بتكريس نحو البصريين، واستبعاد نحو الكوفيين، مهما عاضدته الدلائل والشهاد، فراجع لاحظ. ولهذا البحث مجال آخر.

فشل المحاولات

على أن كل تلك الجهود، وإن تركت بعض الأثر بصورة عامة، ولكنها لم تؤت كل ثمارها المرجوة، فقد فرض الفقه والحديث العراقي نفسه على الساحة، ولا يمكنهم الاستغناء عنه بالكلية، فقبلوه على مضض وكراه منهم، حتى ليقول ابن المديني:

« لو تركت أهل البصرة لحال القدر، وتركت أهل الكوفة لذلك الرأي (يعني التشيع) خربت الكتب » 58.

وقال محمد بن يعقوب: « إن كتاب أستاذه (يعني صحيح مسلم) ملآن من حديث الشيعة » 58.

قد روى البخاري نفسه عن طائفة كبيرة ممن ينسبون إلى التشيع من العراقيين وغيرهم 59  
خلالات لا بد من قراءتها

ولمزيد من التأييد والتأكيد على ما نريد أن نقوله، نعود إلى التذكير ببعض النقاط المفيدة في إيضاح المطلوب، فنقول:

لا معايير ولا ضوابط

لقد كانت كل تلك السياسات التي تحدثنا عنها تنفذ في حين: أن الناس لم يكونوا قادرين على تمييز الغث من

السمين، والصحيح من السقيم، لأنهم كانوا قد فقدوا المعايير والضوابط المعقولة والمقبولة، التي تمكنتهم من

ممارسة دور الرقابة الدقيقة والمسؤولة على ما يزعم أنه شريعة ودين، وأحكام وإسلام.

إنفلات الزمام

وبما أن الناس كانوا يريدون معرفة شيء عن دينهم، ويحبون قرآنهم، وإسلامهم، ونبيهم.

وبما أنه لم يعد ثمة من يستطيع أن يعارض أو أن يعترض، فقد راجت بضائع الكاذبين والوضاعين، وقامت سوقهم على قدم وساق.

وتمكنوا من إشاعة أباطيلهم، وترهاتهم، وأضاليلهم.

ولم يكن كثير من الناس يملكون القدرة على تمييز الصحيح من السقيم، والحق من الباطل، والأصيل من

الدخيل.

أهل الكتاب يمارسون دورهم

وكان أهل الكتاب في طليعة المستفيدين من هذه الأجواء، حسبما أوضحتناه.

حيث إن ذلك قد سهل على الذين أظهروا الإسلام منهم: أن ينشروا أباطيلهم وترهاتهم، بعد أن خلت لهم الساحة، وأصبحوا هم مصدر العلم والمعرفة الدينية، والثقافة لأكثر الناس، خصوصاً مع ما كانوا ينعمون به من حماية وتأييد من قبل الحكام آنئذ.

إبعاد أهل البيت عليهم السلام عن الساحة

إنما أصبح ذلك ممكناً بعد أن تمكّن الحكام من فرض ظروف منع الصفة من أهل البيت « عليهم السلام »، وشيعتهم الأبرار رضوان الله تعالى عليهم من ممارسة دورهم في التصحيح والتنقية، والتقليل والتطعيم، وفضح زيف المزيفين، ودفع كيد الخائبين.

وحرص أكثر الناس ولاسيما الحاقدون والمترافقون، وضياع النفوس، على الابتعاد عنهم « عليهم السلام »، ولاسيما بعد استشهاد سيد شباب أهل الجنة، الإمام الحسين « عليه السلام »، وصحبه الأخيار، وأهل بيته الأطهار في كربلاء الفداء.

وقد أشار الإمام السجاد إلى ذلك، فقال: « اللهم إن هذا المقام لخلفائك وأصفيائك، ومواضع أمنائك. في الدرجة الرفيعة، التي اختصتهم بها، قد ابتزوهما حتى عاد صفوتك، وخلفاؤك مغلوبين، مقهورين، مبترزين. يرون حكمك مبدلاً، وكتابك منبذاً، وفرائضك محرفة عن جهات أشعاعك، وسنتك متروكة الخ.. » 60.

والملفت للنظر هنا: أنه « عليه السلام » يقرر هذه الحقيقة ويعلنها في صيغة دعاء، في خصوص يوم عرفة في موسم الحج، حيث يجتمع الناس من مختلف الأقطار والأماكن، ليستفيدوا من هذه الشعيرة العظيمة، ويعودوا إلى بلادهم بمزيد من الطهر، والصفاء، والأخلاق، والوعي لدينهم، ولعقيدتهم.

ثم تكون هذه الفقرات جزءاً من دعاء يدعوه المسلمين كل يوم جمعة في طول البلاد الإسلامية وعرضها وباستمرار، ليس لهم ذلك في المزيد من إيجاد حالة الوعي الرسالي، ولذلك من ثم واحداً من مسؤولياتهم الإيمانية، والعقيدية.

وقد تعودنا من الإمام السجاد « عليه السلام » هذا الأسلوب الفذ في أكثر من مجالات الفكر، والعقيدة، والسلوك، كما يتضح ذلك بالمراجعة إلى الصحيفة السجادية، وغيرها من الأدعية المنقولة عنه صلوات الله وسلامه عليه وعلى آبائه وأبنائه الطيبين الطاهرين.

الالتجاء المبكر إلى الرأي والقياس

وغمي عن القول: إن استبعاد حديث الرسول « صلى الله عليه وآله »، قد أوقع السلطات الحاكمة في مأزق حقيقي على صعيد الفتوى، وإصدار الأحكام، ولذلك كان أول من بادر إلى العمل بالرأي والقياس هم الحكام أنفسهم، الذين كانوا يصررون على استبعاد أهل البيت « عليهم السلام » - قدر الامكان - عن دائرة الفتوى، وعن بث العلوم والمعارف الصحيحة، والصافية في الناس.

ثم تبعهم رعيل كبير ممن تسمى بالفقهاء والمحدثين، الذين كان الكثيرون منهم من طلاب اللبنانيات، ومن المترافقين إلى الحكام، ومن وعاظ السلاطين. فطغت مدرسة الرأي، وانتشر العمل بالاستحسان وبالقياس 61 »

حتى استحالـت الشـريـعـة، وصارـ أـصـحـابـ الـقـيـاسـ أـصـحـابـ شـريـعـةـ جـديـدةـ » 62 كـمـاـ قـالـهـ المـعـتـزـلـيـ الشـافـعـيـ. وـسـيـأـنـيـ 63: أـنـ أـبـاـ بـكـرـ كـانـ أـوـلـ مـنـ عـمـلـ بـرـأـيـهـ، حـيـنـمـاـ لـاـ يـكـونـ لـدـيـهـ نـصـ عـنـ رـسـوـلـ اللـهـ «ـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـآلـهـ »ـ، كـمـاـ زـعـمـوـاـ.

ثـمـ جـاءـ عـمـرـ بـنـ الـخـطـابـ، فـأـكـدـ ذـلـكـ، وـرـسـخـهـ، قـوـلـاـ وـعـمـلـاـ. وـسـتـأـتـيـ بـعـضـ أـقـوـالـهـ وـرـسـائـلـهـ إـلـىـ أـبـيـ مـوـسـىـ الـأـشـعـرـيـ 64، وـشـرـيـحـ الـقـاضـيـ، الـتـيـ يـأـمـرـ فـيـهـاـ بـالـعـمـلـ بـالـرـأـيـ وـالـقـيـاسـ فـيـ رـقـمـ 28ـ مـنـ هـذـاـ الفـصـلـ.

مـعـ أـنـهـمـ يـقـولـوـنـ: إـنـ عـمـرـ بـنـ الـخـطـابـ هـوـ الـذـيـ اـنـتـقـدـ الـقـائـلـيـنـ بـالـرـأـيـ، وـرـوـيـ عـنـ رـسـوـلـ اللـهـ «ـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـآلـهـ »ـ قـوـلـهـ: «ـ إـنـ أـصـحـابـ الرـأـيـ أـعـدـاءـ السـنـنـ، تـفـلـتـ مـنـهـمـ أـنـ يـعـوـهـاـ، وـأـعـيـتـهـمـ أـنـ يـحـفـظـوـهـاـ، وـسـلـبـوـاـ أـنـ يـقـولـوـاـ: لـاـ نـعـلـمـ فـعـارـضـوـاـ السـنـنـ بـرـأـيـهـمـ »ـ 65ـ.

وـلـعـلـ ذـلـكـ قـدـ كـانـ مـنـهـ قـبـلـ أـنـ يـوـاجـهـ الـمـشـكـلـةـ، وـيـحـتـاجـ إـلـىـ الـعـمـلـ بـآـرـائـهـ، أـيـ قـبـلـ أـنـ يـتـشـدـدـ فـيـ الـمـنـعـ مـنـ رـوـاـيـةـ حـدـيـثـ النـبـيـ «ـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـآلـهـ »ـ وـكـتـابـتـهـ، وـقـبـلـ أـنـ يـمـنـعـ الـصـحـابـةـ مـنـ الـفـتـوـيـ وـيـحـصـرـ حـقـ الـفـتـوـيـ بـالـأـمـيـرـ، أـوـ مـنـ يـخـتـارـهـ الـأـمـيـرـ.

وـرـبـمـاـ يـكـونـ ذـلـكـ مـنـهـ مـخـتـصـاـ بـأـوـلـئـكـ الـذـيـنـ يـفـتـونـ النـاسـ بـآـرـائـهـمـ، دـوـنـ إـجـازـةـ مـنـ الـحـاـكـمـ أـوـ الـأـمـيـرـ. وـلـعـلـ التـوـجـيـهـ الـأـوـلـ هـوـ الـأـنـسـبـ بـسـيـاقـ كـلـامـهـ، حـيـثـ يـنـسـبـهـمـ إـلـىـ الـجـهـلـ بـالـسـنـنـ، فـعـارـضـوـاـ السـنـنـ بـآـرـائـهـمـ. إـلـاـ أـنـ يـدـعـيـ: أـنـهـ يـرـيدـ أـنـ غـيـرـ الـأـمـرـاءـ لـمـ يـكـنـ لـدـيـهـمـ عـلـمـ بـالـسـنـنـ، وـالـعـلـمـ بـهـاـ مـحـصـورـ بـالـأـمـرـاءـ. وـهـذـاـ كـلـامـ لـاـ يـمـكـنـ قـبـولـهـ، وـلـاـ مـوـافـقـةـ عـلـيـهـ، لـمـخـالـفـتـهـ الـظـاهـرـةـ لـلـبـدـاهـةـ وـلـلـوـاقـعـ.

أـصـدـقـ الـحـدـيـثـ

وـقـدـ أـوـضـحـ لـنـاـ إـلـمـامـ الصـادـقـ «ـ عـلـيـهـ السـلـامـ »ـ - فـيـمـاـ روـيـ عـنـهـ - سـبـبـ لـجـوـئـهـمـ إـلـىـ الرـأـيـ، وـالـقـيـاسـ فـيـ دـيـنـ اللـهـ، ثـمـ مـاـ نـشـأـ عـنـ ذـلـكـ.

وـهـيـ شـهـادـةـ مـمـنـ كـانـ حـاـضـرـاـ وـنـاظـرـاـ، وـقـدـ شـاهـدـ وـعـاـيـنـ، وـخـبـرـ الـأـمـورـ، وـوـقـفـ عـلـىـ أـغـواـرـهـاـ، وـاـسـتـكـنـهـ أـسـرـارـهـاـ، فـهـوـ يـقـولـ:

«ـ يـظـنـ هـؤـلـاءـ الـذـيـنـ يـدـعـونـ أـنـهـمـ فـقـهـاءـ عـلـمـاءـ، قـدـ أـثـبـتوـاـ جـمـيعـ الـفـقـهـ وـالـدـيـنـ، مـمـاـ يـحـتـاجـ إـلـيـهـ الـأـمـةـ!! وـلـيـسـ كـلـ عـلـمـ رـسـوـلـ اللـهـ «ـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـآلـهـ »ـ عـلـمـوـهـ، وـلـاـ صـارـ إـلـيـهـمـ مـنـ رـسـوـلـ اللـهـ «ـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـآلـهـ »ـ وـلـاـ عـرـفـوـهـ. وـذـلـكـ أـنـ الشـيـءـ مـنـ الـحـلـالـ، وـالـحـرـامـ، وـالـأـحـكـامـ، يـرـدـ عـلـيـهـمـ؛ فـيـسـأـلـوـنـ عـنـهـ، وـلـاـ يـكـونـ عـنـهـمـ فـيـهـ أـثـرـ مـنـ رـسـوـلـ اللـهـ «ـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـآلـهـ »ـ.

وـيـسـتـحـيـوـنـ أـنـ يـنـسـبـهـمـ النـاسـ إـلـىـ الـجـهـلـ، وـيـكـرـهـوـنـ أـنـ يـسـأـلـوـاـ فـلـاـ يـجـيـبـوـنـ؛ فـيـطـلـبـ النـاسـ عـلـمـ مـعـدـنـهـ. فـلـذـلـكـ اـسـتـعـمـلـوـاـ الرـأـيـ، وـالـقـيـاسـ فـيـ دـيـنـ اللـهـ، وـتـرـكـوـاـ الـآـثـارـ وـدـانـوـاـ بـالـبـدـعـ الـخـ.. »ـ 66ـ.

الـدـوـافـعـ وـالـأـهـدـافـ

قـدـ قـدـمـنـاـ فـيـمـاـ سـبـقـ إـيـضـاحـاتـ حـولـ سـيـاسـاتـ الـحـكـامـ تـجـاهـ حـدـيـثـ الرـسـوـلـ، رـوـاـيـةـ وـكـتـابـةـ، وـتـجـاهـ السـؤـالـ عـنـ مـعـانـيـ الـقـرـآنـ وـغـيـرـ ذـلـكـ.

وـبـقـيـ أـنـ نـشـبـرـ إـلـىـ دـوـافـعـ هـذـهـ السـيـاسـةـ وـأـهـدـافـهـاـ، فـنـحـنـ نـجـمـلـ ذـلـكـ عـلـىـ النـحـوـ التـالـيـ:

1ـ لـلـخـلـيـفـةـ مـقـامـ الرـسـوـلـ

لقد كان الخليفة الإسلامي - بنظر الناس - يحتل مقام رسول الله « صلى الله عليه وآله ». وذلك يعني: أنه لا بد أن يقوم بنفس المهام، ويتحمل نفس المسؤوليات التي للرسول الأكرم « صلى الله عليه وآله ». فهو القاضي، والحاكم، والمربى، والقائد العسكري، والمفتى، والعالم، ووالخ..

وقد كان الناس يرون: أن لهم الحق في توجيهه أي نقد له، ومطالبته بأية مخالفة تصدر منه، وأي خطأ يقع فيه. فإذا رجعنا إلى أولئك الذين سلّموا زمام الحكم فور وفاة رسول الله « صلى الله عليه وآله », فإننا نجد: أنهم ليسوا في مستوى توقعات الناس، لاسيما وأن التناقضات في فتاواهم وأعمالهم مع ما سمعه الصحابة ورأوه من رسول الله « صلى الله عليه وآله », وعرفوه من مواقفه، كانت كثيرة وخطيرة.

هذا كله عدا عن مخالفاتهم لكثير من النصوص القرآنية، وأخطائهم، أو عدم اطلاعهم على تفسير كثير من آياته. بالإضافة إلى تناقضهم في الأحكام والفتاوي باستمرار.

وقد اعترفوا لهم أنفسهم بالحقيقة، وقرروها في مناسبات عدّة، حتى وهم يواجهون بعض الاعتراضات من قبل النساء على بعض مخالفاتهم حيث ظهر أنهم لا يملكون الكثير من المعرفة بالأحكام الشرعية، والدينية، التي يحتاجها الناس في معاملاتهم وشؤونهم.

بل إن الخليفة الثاني قد سجل كلمة طارت في الآفاق، وأصبحت لها شهرة متميزة، وذلك حينما طالب أبا موسى الأشعري ببيانه على حديث رواه، وإلا فلسوف ينزل به العقاب.

ثم اتضح صحة الحديث، فقال عمر بن الخطاب في هذه المناسبة: إنه ألهاه الصدق بالأسواق 67 عن الحضور عند النبي « صلى الله عليه وآله » لسماع حديثه، والاستفادة منه.

وهو الذي يقول أيضاً: كل الناس أفقه من عمر، حتى ربات الحجال في خدورهن.

وقال عشرات المرات: لولا علي لهلك عمر. ونحو ذلك 68.

ومهما يكن من أمر، فقد كثرت الاعتراضات، وظهر القصور جلياً واضحاً في نطاق تطبيق الرواية، والفتوى، والقضاء، والموقف السياسي، وغير ذلك، على النص القرآني، والسنة النبوية بصورة عامة.

وقد بدا واضحاً: أن استمرار الوضع على هذا المنوال لسوف يضعف موقع الحاكم، وسيهتز ويتشتت، ولن تبقى له تلك المصداقية الفاعلية، ولا الهيمنة القوية التي يتواхها.

## 2- إحراجات لا بد من الخروج منها

ومن جهة أخرى، فقد كانت هناك تصريحات كثيرة للرسول الأعظم « صلى الله عليه وآله », وموافق حاسمة وحساسة تجاه بعض القضايا وبعض الناس، إيجابية هنا، وسلبية هناك.

كان إظهارها وشيوعها بين الناس لا يخدم مصلحة الحاكم، بل هو يضرهم ويجرّهم بصورة كبيرة وخطيرة، فلا بد من معالجة هذا الأمر وتلافي سلبياته، فكان انتهاج هذه السياسة مفيدة جداً لهم في ذلك. وإليك تفصيل ذلك:

إن مما يدل أو يشير إلى أنه قد كان ثمة مواقف للرسول « صلى الله عليه وآله », ونصوص لم يكن إظهارها في مصلحة الحاكم، فكان لا بد من التعتيم عليها، وطمسمها، قول ابن أبي الحديد المعتزلي:

« قد أطبقت الصحابة إطريقاً واحداً على ترك كثير من النصوص لما رأوا المصلحة في ذلك » 69.

وواضح: أن مراده من الصحابة المجمعين من عدا علياً « عليه السلام », لأن المعتزلي نفسه يقول: « إنما قال أعداؤه: لا رأي له؛ لأنه كان متبعاً بالشريعة، لا يرى خلافها ». 70

إلى أن قال: « وغيره من الخلفاء كان يعمل بمقتضى ما يستصلاحه، ويستوفقه، سواء أكان مطابقاً للشرع أم لم

يكن. ولا ريب أن من يعمل بما يؤدي إليه اجتهاده، ولا يقف مع ضوابط وقيود يمتنع لأجلها مما يرى الصلاح فيه، تكون أحواله إلى الانتظام أقرب ». 70

وقد قال عثمان للناس على المنبر: « أبىها الناس، إني كتمتكم حديثاً سمعته من رسول الله « صلى الله عليه وآلها كراهة تفرقكم عنى، ثم بدا لي الخ.. ». 71

وهناك مواقف إيجابية لرسول الله « صلى الله عليه وآلها » تجاه بعض المخلصين من صحابته، الذين كانوا يملكون مؤهلات نادرة، وميزات فريدة، تجعل لهم الحق دون كل من عداهم بالتصدي لإماماة الأمة، وقيادتها. وأعني به علياً أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام.

وقد ركزت كلمات ومواقف الرسول الأعظم « صلى الله عليه وآلها » على إظهار تلك الميزات الفريدة بالذات، سواء منها ما يرتبط بفضائله « عليه السلام » الذاتية، أو فيما يرتبط بما له من جهاد وسوابق.

ثم أوضحت تلك المواقف النبوية، والنصوص عنه « صلى الله عليه وآلها » بالاستناد إلى ذلك: أن الإمامة وقيادة الأمة إنما هي حق له، وللائمة من ولده « عليهم السلام »، دون كل أحد سواهم.

وذلك من شأنه: أن يضع الهيئة التي تصدت للحكم بعد النبي « صلى الله عليه وآلها » أمام إحراجات كبيرة في مسألة مصيرية، وخطيرة وحساسة، بل وفي منتهى الحساسية، ويضع علامات استفهام واضحة على مجلمل الوضع القائم آنذاك، ومدى شرعيته.

فكان لا بد من محاربة هذا النوع من النصوص، والتعتيم على تلكم المواقف، تلافياً لما هو أعظم وأدهى. فعن عبد الرحمن بن الأسود عن أبيه، قال: « جاء علقة بكتاب من مكة أو اليمن، صحيفه فيها أحاديث في أهل البيت - بيت النبي « صلى الله عليه وآلها » - فاستأذنا على عبد الله 72، فدخلنا عليه، قال: فدفعنا إليه الصحيفه. قال: فدعا الجارية، ثم دعا بسطت فيه ماء.

فقلنا له: يا أبا عبد الرحمن، انظر فيها؛ فإن فيها أحاديث حساناً! قال: فجعل يميتها فيها وهو يقول:

﴿ تَحْنُّ نَقْصُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ إِمَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هُذَا الْقُرْآنَ ... ﴾ 73 ، القلوب أوعية؛ فاشغلوها بالقرآن، ولا تشغلوها بما سواه ». 74

ويذكرون: أن ابن عباس أتى أيضاً بكتاب فيه قضاء على « عليه السلام »، فمحاه إلا قدر ذراع 75. وإن كنا نشك في صحة ذلك، ونرى، أن ابن مسعود هو الذي فعل ذلك، وسيأتي في مواضع من هذا الكتاب بعض النماذج للحرب الإعلامية التي كانت تمارس ضد علي وأهل بيته « عليهم السلام » وشيعته الأبرار رضوان الله تعالى عليهم.

وهناك أقوال صحيحة، ومواقف صريحة لرسول الله « صلى الله عليه وآلها » تبين انحراف وزيف كثير من الشخصيات والرموز التي كانت تدعم الحكم الجديد، وتشد من أزره، وتعمل على بسط سلطته، وترسيخ نفوذه، بل فيهم بعض من أصبح جزءاً من تكوينه وهيكليته، ومن ركائزه ودعائمه، الأمر الذي جعل الحكم الجديد يرى نفسه مسؤولاً عن الحفاظ على سمعة هؤلاء الناس، ورفة شأنهم، وبسط نفوذهم، وإظهارهم على أنهن شخصيات على درجة من الفضل والنبل، ولهم من المواقف المشرفة، ومن الكرامات ما ليس لغيرهم، بل لا بد أن يُظهروا للناس - ولو عن طريق الأخلاق، والتحريف، والتزوير - أن هؤلاء الناس هم الذين شيدوا أركان الدين، وضحوا وواجهوا حتى قام عموده، واشتند عوده.

أما أقوال النبي الأكرم « صلى الله عليه وآلها » في حقهم، ومواقفه « صلى الله عليه وآلها » تجاههم، فلا ضير في

أن تكتم وتتستر، ثم تتلاشى وتندثر، بل لا بد لها من ذلك، وحيث لا يمكن ذلك، فلا أقل من التأويل والتبديل، والتحريف والتزييف، أو اختلاق ما ينافق ويعارض. وذلك هو أضعف الإيمان.

وقد روى أحمد بن حنبل: أنه كان بين حذيفة وسلمان شيء؛ فسأله أبو قرة الكندي عن ذلك، فقال: «إن حذيفة كان يحدث بأشياء يقولها رسول الله «صلى الله عليه وآله» - في غضبه 76 - لأقوام، فأسأل عنها، فأقول: حذيفة أعلم بما يقول، وأكره أن يكون ضغائن بين أقوام، فأتى حذيفة، فقيل له: إن سلمان لا يصدقك ولا يكذبك بما تقول.

فجاءني حذيفة فقال: يا سلمان ابن أم سلمان.

قلت: يا حذيفة ابن أم حذيفة، لتنتهي، أو لاكتبني إلى عمر، فلما خوفته بعمر تركني الخ.. 77

إذن، فقد كان حذيفة يحدث الناس بما كان يوقع سلمان الذي كان أميراً على المدائن من قبل عمر في حرج شديد فكان لا بد لسلمان من أن يوقف حذيفة عن الإستمرار في ذلك، فاستفاد من هذه الوسيلة لتحقيق هذا الهدف.

وبعبارة أخرى: إن السياسة كانت قد فرضت حظراً على تناقل بعض ما يتعلق بأحوال الأشخاص.

وقد كان حذيفة بنقله تلك الأمور قد أخرج سلمان، فلما هدده بالكتابة إلى الخليفة كف عن ذلك، غير أنه قد وردت في آخر الحديث زيادة نحسب أنها لم ترد على لسان سلمان، وهي أن النبي «صلى الله عليه وآله» قال: «أيما مؤمن لعنته لعنة، أو سببته سبة، في غير كنهه، فاجعلها عليه صلاة» 77.

فإن ذلك لا شك في كونه من الأكاذيب على رسول الله «صلى الله عليه وآله»، وعلى سلمان، فراجع ما ذكرناه في غزوة أحد من هذا الكتاب، ثم ما سنذكره حول موضوع السب واللعن أيضاً.

### 3 - التأثر بأهل الكتاب

هناك فرقتان من اليهود:

إحداهما: «فقهاء الفريسيين»، وهم يؤمنون بكتابه العلم وتدوينه. ويكتبون كلام علمائهم وأحبارهم. كما هو الحال بالنسبة إلى التلمود، الذي له أهمية كبيرة عند معظم اليهود، بل إن أهميته لدى بعض فرقهم لتزيد على أهمية العهد القديم نفسه 78.

الثانية: فرقة يقال لها: «القراء»، وهم الذين كثروا ونشطوا بعد ضعف أمر الفريسيين، وهم يقولون بعدم جواز كتابة شيء غير التوراة 79.

وقد صرخ البعض: بأن فرقة الصدوقيين لا تعترف إلا بالعهد القديم، وترفض الأخذ بالأحاديث الشفوية المنسوبة إلى موسى «عليه السلام» 80.

بل لقد جاء في التلمود نفسه: «إن الأمور التي تروي مشافهة ليس لك الحق في إثباتها بالكتابة» 81. وقد علق على ذلك بعض العلماء بقوله: «من العجيب: أن اليهود كتبوا التلمود والمشناة حتى هذا النهي. وأهل الحديث من المسلمين كتبوا الأحاديث حتى الحديث المكذوب: لا تكتبوا عنـي.. الخ» 82.

غير أننا نقول: إن المقصود هو المنع من الروايات الشفوية عن الأنبياء، أما أقوال العلماء فهي الشريعة، تماماً كما يقول البعض الآن: إن آراء الصحابة شريعة وسنة.

والذي يظهر لنا هو: أن كعب الأحبار قد كان من الفرقة التي لا تجيز كتابة غير التوراة. ويشير إلى ذلك: أنه حينما سأله الخليفة الثاني عن الشعر، أجابه كعب واصفاً العرب بقوله: «أجد في التوراة قوماً من ولد إسماعيل، أناجيهم في صدورهم، ينطقوـن بالحكمة» 83.

وقد روی مثل ذلك وھب بن منبه أیضاً - الذي كان أیضاً في الأساس من أهل الكتاب - فقد جاء في رواية مطولة له قوله: « يا رب، إني أجد في التوراة قوماً أناجيلهم في صدورهم، يقرؤونها، وكان من قبلهم يقرؤون كتبهم نظراً، ولا يحفظونها، فاجعلهم أمتي، قال: تلك أمة محمد » .<sup>84</sup>

فلعل كعب الأخبار، وغيره ممن كان مقرباً من السلطة قد استفاد من حسن الظن به من قبل الصحابة والحكام، فألقى هذا الأمر إليهم، وهم غافلون، فواافق قبولاً منهم، بسبب ما كانوا يعانونه من مشكلات ألمحنا إليها آنفاً. ومما يشير إلى أن السلطة كانت تختنز في وعيها شيئاً من ذلك هو التعليل الذي جاؤوا به حينما أرادوا إحراق ما جمعوه من أحاديث كتبها الصحابة عن رسول الله « صلی الله علیه وآلہ »، حيث ذكروا: أن سبب إقدامهم على هذا الأمر هو الالتفات إلى أن أمماً كانوا قبلهم كان بينهم كتاب الله، فلما كتبوا أقوال علمائهم أكبوا عليها، وتركوا كتاب الله (راجع ما تقدم).

والملفت للنظر هنا: أن يتخيل هؤلاء المساواة فيما بين أقوال النبي « صلی الله علیه وآلہ » الذي لا ينطق عن الهوى، وبين أقوال علماء أهل الكتاب الذين كانوا يخلطون الحق بالباطل عن عمد وإصرار في كثير من الأحيان، إن لم يكن في أكثرها.

بغضهم لعلي عليه السلام سبب آخر

هذا، ولا بد من الإشارة هنا: إلى أن السياسة التي انتهت تجاه حديث النبي « صلی الله علیه وآلہ »، وإن كانت سبباً مهماً لما حاصل بالإسلام من بلاء، على صعيد تجھیل الناس به، والتلاعيب بالدين، وتغيير أحكام الشريعة. ولكن ذلك ليس هو كل شيء في هذا المجال، بل إن ثمة سبباً آخر كان له دوره وتأثيره في ذلك، وهو: بغض علي « عليه السلام »، والإصرار على مخالفته في كل شيء.

قال ابن عباس: « اللهم العنهم، قد تركوا السنة من بغض علي » .<sup>85</sup>

قال السندي: « أي وهو كان يتقييد بها » .<sup>86</sup>

وقال النيسابوري حول السبب في تركهم الجھر بالبسملة في الصلاة: « وأيضاً، ففيه تهمة أخرى، وهي: أن علياً رضي الله عنه كان يبالغ في الجھر بالتسمية؛ فلما كان زمان بنى أمية بالغوا في المنع عن الجھر، سعياً في إبطال آثار علي » .<sup>87</sup>

ورغم اعتراف الحجاج بأن أمير المؤمنين « عليه السلام » المرء الذي لا يرغب عن قوله، فإنه يصر على مخالفته، والعمل برأي عثمان!!<sup>88</sup>

وقد عاش الحسنان « عليهما السلام » في الناس دھراً طويلاً، وهما إمامان قاماً أو قعداً، لكن ما روی عنهما في أحكام الشريعة قليل جداً لا يكاد يذكر.

ولا يمكن أن يصغي إلى ما اعتذر به ابن شهر آشوب هنا، حيث قال: « وأما من قل منهم الروايات، مثل الحسن والحسين، فلقلة أيامهما » .<sup>89</sup>

والصحيح هو أن الناس أهملوا أقوالهم، ولم يهتموا بنقل شيء عنهم، بغضاً منهم لهم، أو خوفاً من معاقبة الحكام .<sup>90</sup>



22. راجع: المصنف ج 6 ص 274 و 275.
23. صحيح البخاري ج 1 ص 90 و 93 ط سنة 1309 هـ. ومسند أحمد ج 5 ص 109 و 112، والسنن الكبرى ج 2 ص 37 و 54 عن الصحيحين، والبحر الزخار ج 2 ص 247 وجواهر الأخبار والآثار (مطبوع بهامش البحر الزخار) ج 2 ص 247 عن أبي داود والترمذى، والانتصار، والنسائى، والبخارى.
24. راجع: المصنف للصناعي ج 1 ص 93 والمغنى لابن قدامة ج 1 ص 8 والشرح الكبير بهامشه ج 1 ص 7 وراجع: تحفة الأحوذى ج 1 ص 231 ط دار الفكر، والخلاف ط جماعة المدرسين ج 1 ص 51 والمحلى ج 1 ص 221 ونيل الأوطار ج 1 ص 20 والجامع لأحكام القرآن ج 13 ص 53 وعن المصنف لابن أبي شيبة ج 1 ص 88.
25. راجع: الخلاف ج 1 ص 51 وتحفة الأحوذى ج 1 ص 231 ونيل الأوطار ج 1 ص 20.
26. نيل الأوطار ج 1 ص 20 والمحلى ج 1 ص 221 وتحفة الأحوذى ج 1 ص 231.
27. الموقفيات ص 203 - 205 وراجع: جمهرة خطب العرب ج 3 ص 355.
28. الأخبار الموقفيات ص 203 - 204 ح 119.
29. علوم الحديث لابن الصلاح ص 367 والباعث الحثيث ص 85 والسنة قبل التدوين عن فتح المغىث ج 4 ص 39 وعن تلقيح فهوم أهل الآثار.
30. إرشاد الفحول ص 251.
31. مناقب الشافعى ج 1 ص 419 وعن الوحي المحمدى لمحمد رشيد رضا ص 243.
32. المقدمة لابن خلدون ص 444 وأضواء على السنة المحمدية ص 388.
33. بحوث في تاريخ السنة المشرفة ص 236.
34. راجع: تعجيز المنفعة ب الرجال الأربعه ص 6. وبحوث في تاريخ السنة المشرفة ص 37 عنه. والقول المدد في الذب عن المسند للإمام أحمد، لابن حجر العسقلاني. وذيل القول المدد للمدراسي.
35. شرف أصحاب الحديث ص 115 وفضل الاعتزال وطبقات المعتزلة لعبد الجبار ص 193.
36. راجع: الباعث الحثيث ص 186 و 187.
37. فضل الاعتزال، وطبقات المعتزلة ص 193 و 158.
38. راجع: سير أعلام النبلاء ج 1 ص 456 والتاريخ الكبير ج 8 ص 282 وتهذيب التهذيب ج 11 ص 230.
39. سير أعلام النبلاء ج 10 ص 455 والعلل ومعرفة الرجال ج 1 ص 187 وتهذيب التهذيب ج 11 ص 230 والضعفاء الكبير للعقيلي ج 4 ص 408 وتدذكرة الحفاظ ج 1 ص 408.
40. راجع: مقدمة فتح الباري ص 452 وتهذيب التهذيب ج 11 ص 229.
41. المغنى للقاضي عبد الجبار ج 4 ص 228 و ص 225 و 235 و 236.
42. الألم للشافعى ج 7 ص 308.
43. راجع: على سبيل المثال التراتيب الإدارية ج 2 ص 208 والكافية في علم الرواية ص 431 وراجع: المجرحون ج 1 ص 156 و 185 و 155 و 142 و 96 و 63 و 65 حول وضع الحديث للملوك. وراجع: الباعث الحثيث ص 84 وبحوث في تاريخ السنة المشرفة ص 32 و 33 ولسان الميزان ج 3 ص 405 وج 5 ص 228 والفوائد المجموعة ص 426 و 427 وأى كتاب يتحدث عن الموضوعات في الأخبار والآثار مثل الآلئ المصنوعة للسيوطى، والأسرار المرفوعة للشوكانى وال الموضوعات للفتني، وغير ذلك.
44. راجع على سبيل المثال: التراتيب الإدارية ج 2 ص 202 - 208 و 407 والكنى والألقاب ج 1 ص 414 ولسان

- الميزان ج 3 ص 405 وتذكرة الحفاظ ج 2 ص 641 و 430 وج 1 ص 254 و 276 وهذا الكتاب مملوء بهذه الأرقام  
العالية والمخفية، فليراجعه طالب ذلك.
45. راجع: اللآلئ المصنوعة ج 1 ص 286 و 315 - 316 و 417 وبحوث في تاريخ السنة المشرفة ص 22 عنه  
وعن تنزيه الشريعة ج 1 ص 372 وج 2 ص 4.
46. اللآلئ المصنوعة ج 1 ص 428 وبحوث في تاريخ السنة المشرفة ص 22 عنه.
47. اللآلئ المصنوعة ج 1 ص 323 وبحوث في تاريخ السنة المشرفة ص 22 عنه وعن ابن تيمية في المنتقى  
من منهاج الاعتدال ص 313.
48. الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ج 1 ص 121 و راجع: وفيات الأعيان ج 1 ص 77 ط بيروت  
والبداية والنهاية ج 11 ص 124 وممرأة الجنان ج 2 ص 241 وتذكرة الحفاظ ج 2 ص 700 وراجع ص 699 وشذرات  
الذهب ج 2 ص 240 وراجع: سير أعلام النبلاء ج 14 ص 132 وتهذيب الكمال ج 1 ص 339 وتهذيب التهذيب ج  
1 ص 38 والمنتظم ج 6 ص 131.
49. بحوث في تاريخ السنة المشرفة ص 24 وتهذيب تاريخ ابن عساكر ج 1 ص 70.
50. الطبقات الكبرى لابن سعد ط صادر ج 4 ص 267.
51. بحوث في تاريخ السنة المشرفة ص 24 وتهذيب تاريخ دمشق ج 1 ص 70.
52. ستائي إشارة إلى ذلك حين الحديث حول روایات بدء الوحي، وقصة ورقة بن نوفل.
53. بحوث في تاريخ السنة المشرفة ص 25 عن ابن تيمية في المنتقى من منهاج الاعتدال ص 88.
54. بحوث في تاريخ السنة المشرفة ص 25 عن الكامل لابن عدي ج 1 ص 3 - أ.
55. بحوث في تاريخ السنة المشرفة ص 93 وراجع تهذيب التهذيب ج 1 ص 93 وج 5 ص 46 وج 10 ص  
.158.
56. تهذيب تاريخ دمشق ج 1 ص 70 - 71 وبحوث في تاريخ السنة المشرفة ص 25 عنه.
57. المصدران السابقان.
58. a. الكفاية في علم الرواية ص 129.  
b. راجع: فتح الباري (المقدمة) ص 460 و 461 وبحوث في تاريخ السنة المشرفة ص 28.
59. الصحيفة السجادية، دعاء 48. وهو الدعاء الخاص بيوم الجمعة وعرفة.
60. حياة الشعر في الكوفة ص 253 وكنز العمال ج 1 ص 332 وغير ذلك.
61. شرح نهج البلاغة للمعتزلي ج 12 ص 84.
62. في فصل: معايير لحفظ الانحراف رقم: 11 - رأي الصحابي حيث لا نص.
63. سيأتي ذلك إن شاء الله في فصل: معايير لحفظ الانحراف رقم: 28 - القياس، والرأي والاستحسان.
64. كنز العمال ج 1 ص 335 عن ابن أبي نصر والغدیر ج 7 ص 119 و 120 عن جامع بيان العلم ج 2 ص 134  
ومختصره ص 185 وعن أعلام الموقعين ص 19.
65. وسائل الشيعة ج 18 ص 40 وتفسير العياشي ج 2 ص 331.
66. راجع: صحيح البخاري ج 4 ص 172 وج 2 ص 4 ومسند أحمد ج 4 ص 400 وسنن أبي داود ج 4 ص  
346 والتراطيب الإدارية ج 2 ص 7 و 25 وحياة الصحابة ج 2 ص 569 والغدیر ج 6 ص 158 عن البخاري، وأبي  
داود وعن مسلم ج 2 ص 234 وعن مسند أحمد ج 3 ص 19 وعن سنن الدارمي ج 2 ص 274 وعن مشكل الآثار ج

- 1 ص 499. وحول تكيل عمر بمن لا يأتي على الحديث ببينة راجع: حياة الصحابة ج 3 ص 360، عن كنز العمال ج 7 ص 34 وغيره.
68. راجع: الغدير للعلامة الأميني رحمه الله تجد تفصيل هذه النصوص، وطائفة كبيرة من مصادرها.
69. شرح النهج للمعتزلي ج 12 ص 83.
70. شرح النهج للمعتزلي ج 1 ص 28.
71. حياة الصحابة ج 1 ص 455 عن مسند أحمد ج 1 ص 65 وراجع ص 61.
72. أبي ابن مسعود.
73. القرآن الكريم: سورة يوسف (12)، الآية: 3، الصفحة: 235.
74. تقييد العلم ص 54 والسنّة قبل التدوين ص 312 وراجع: غريب الحديث لابن سلام ج 4 ص 48. وليس فيه: أن الأحاديث في أهل البيت.
75. صحيح مسلم ج 1 ص 11.
76. هذه الكلمة لا يمكن أن يقولها سلمان الذي هو من أعرف الناس بأمر عصمة الرسول في جميع حالاته، بل هي من إقحامات محبي أولئك المنحرفين الذين لا مانع عندهم من انتقاص شخص الرسول، شرط أن لا يمس أحداً من أحبابهم.
77. a. مسند أحمد ج 5 ص 439. b. مسند أحمد ج 5 ص 77.
78. راجع: اليهودية واليهود ص 23.
79. راجع: التفكير الديني عند اليهود، لمحمد حسن ظاظا وراجع: مقارنة الأديان (اليهودية) ص 227.
80. اليهودية واليهود ص 86 ومقارنة الأديان (اليهودية) ص 226.
81. الفكر الديني الإسرائيلي للدكتور ظاظا ص 79 عن التلمود: حيطين 60 ب - تمور.
82. بحوث مع أهل السنة والسلفية هامش ص 97.
83. راجع: العمدة لابن رشيق ج 1 ص 25 وقد صرحت بذلك كعب في حديث آخر في الدر المنشور ج 3 ص 125 ثم روى ذلك أبو هريرة وقتادة عن النبي «صلى الله عليه وآله» فراجع الدر المنشور ج 3 ص 124 و 123 و 122، وقد استدل البعض بهذا الحديث على حفظ القرآن عن ظهر قلب، فراجع مناهل العرفان ج 1 ص 235 والنشر في القراءات العشر ج 1 ص 6، وفي ربيع الأبرار ج 2 ص 150 ذكر هذا الحديث عن التوراة على لسان راهب آخر فراجع.
84. راجع: البداية والنهاية ج 6 ص 62 ونرفة المجالس ج 2 ص 199.
85. سنن النسائي ج 5 ص 253 وسنن البيهقي ج 5 ص 113 والغدير ج 10 ص 205 عندهما وعن كنز العمال عن ابن جرير نص آخر.
86. تعليق السندي على سنن النسائي ج 5 هامش ص 253.
87. تفسير النيسابوري (مطبوع بهامش جامع البيان للطبراني) ج 1 ص 79.
88. مروج الذهب ج 3 ص 85 والكامل في الأدب ج 1 ص 207 و مكاتيب الرسول ج 1 ص 62.
89. مناقب آل أبي طالب ج 1 ص 274.
90. الصحيح من سيرة النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله)، السيد جعفر مرتضى العاملي، المركز الإسلامي للدراسات، الطبعة الخامسة، سنة 2005 م. - 1425 هـ. ق، الجزء الأول، مدخل إلى دراسة السيرة.

